

أسباب غياب التفسير السوسيولوجي في البحوث الأكاديمية الجزائرية

REASONS FOR LACK OF SOCIOLOGICAL INTERPRETATION IN ALGERIAN ACADEMIC RESEARCHS

RAISONS DU MANQUE D'INTERPRÉTATION SOCIOLOGIQUE DANS LES RECHERCHES UNIVERSITAIRES ALGÉRIENNES.

مراد بلخيري¹

جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعرييج، الجزائر

تاريخ النشر: 2019/12/15

تاريخ القبول: 2019/07/07

تاريخ الإرسال: 2019/04/12

ملخص:

تناول هذه الورقة البحثية أسباب غياب التفسير السوسيولوجي في البحوث الأكاديمية، وسيحاول الباحث هنا تبيان موضوع علم الاجتماع والمنهجية المستخدمة عادة والأدوات الضرورية لجمع البيانات، مع محاولة التعرّيج على مصادر التفسير السوسيولوجي حسب بعض العلماء أمثال رايت ميلز وأنتوني غيدنز. ولما كان من الضروري أن يفسر الاجتماعي بما هو اجتماعي، كان من الأولى التركيز على الجوانب الاجتماعية في الدراسات والبحوث، وإلا كيف لنا أن نفرق بين دراسة اقتصادية أو سياسية أو نفسية وبين دراسة أو بحث اجتماعي. ليتم في الأخير عرض جملة من الأسباب التي يراها الباحث تتحكم في هذه الظاهرة، سواء تعلّق الأمر بالطلبة أو التكوّن في حدّ ذاته أو من جهة الأساتذة. الكلمات المفتاحية: التفسير السوسيولوجي؛ الخيال السوسيولوجي؛ البحث العلمي.

Abstract :

This paper discusses the problematic absence of sociological interpretation in academic research, the researcher will attempt here to identify the topic of sociology and the usual methodology used and the necessary tools for data collection, by trying to reflect the sources of sociological interpretation, according to some scholars like Wright Mills and Anthony Giddens.

Due to the necessity of interpreting the sociological rules with what is in fact regarded as sociological, the priority seems to first focus on the social aspects when dealing with a political or a psychological research and sociological one.

The purpose in the end being inter alia, the presentation of a number of reasons that the researcher considers responsible of the control of this phenomenon, whether it involved students, training itself or professors.

Keywords : Sociological Interpretation ; Sociological Imagination : Scientific Research.

Résumé :

Cet article discute de la problématique de l'absence d'interprétation sociologique dans les recherches académiques. Le chercheur tentera ici d'identifier l'objet de la méthodologie sociologique et les outils nécessaires à la collecte de données, en essayant d'aborder l'interprétation sociologique des sources, selon certains chercheurs comme Wright Mills et Anthony Giddens.

Et comme il est nécessaire d'interpréter les règles sociologiques par ce qui est sociologique, la priorité serait de se concentrer sur les aspects sociaux dans des études et recherches, autrement dit comment va-t-on différencier entre l'étude ou la recherche économique, politique ou psychologique de l'étude sociologique.

En fin de compte le but étant, inter alia, la présentation d'un certain nombre de raisons que le chercheur considère être responsable du contrôle de ce phénomène, qu'il s'agisse d'étudiants ou de ou de formation ou de professeurs.

Mots clés : Interprétation Sociologique; Imagination Sociologique: Recherche Scientifique.

تحتل العلوم الاجتماعية مركزاً هاماً ضمن العلوم الحديثة؛ من خلال دورها في الكشف عن مختلف مسببات الظواهر الاجتماعية وتفسيرها للوصول إلى القوانين التي تحكمها، إضافة إلى دورها في تحليل أوضاع العالم الحديث والتغيرات التي تطرأ عليه، ويعتمد عليها في الكثير من دول العالم المتقدمة بوصفها وسائل هامة لمواجهة متطلبات التكيف والتعامل، بل وأحيانا كثيرة لتشكيل بنية المجتمع والثقافة. (باقادر، 2006، ص 11)

وتستخدم العديد من هذه الدول العلوم الاجتماعية كأدوات لمعرفة ما يدور في المجتمع، ثم العمل على سن التشريعات والقوانين التي من شأنها أن تحقق له آفاقا جديدة لمزيد من التطور والرفق والتنمية، وأحيانا حتى ضبط بعض اتجاهاته. (باقادر، 2006، ص 11)

هذا وتعتمد العلوم الاجتماعية الحديثة ومنها علم الاجتماع على منطلقات نظرية ومنهجية علمية متطورة، قوامها دراسة الواقع الاجتماعي والسعي إلى سبر أغواره من أجل فهم أفضل لما يجري، ومن ثم إمكانية تفسيره، مع محاولة بعض المشتغلين للتوصل إلى قوانين أو تعميمات يمكن اعتبارها فيما بعد قواعد اجتماعية، يُفسر على أساسها السلوك الاجتماعي. (باقادر، 2006، ص 12)

واعتماد العلوم الاجتماعية لهذه الأساليب المنهجية العلمية أدى إلى السعي نحو إبداع وسائل عديدة كمية وكيفية بشكل منهجي منظم، تسمح للمتخصص في هذه العلوم بجمع البيانات التي من شأنها أن تمنحه القدرة على المقارنة بينها ليتمكن من فهم الواقع الاجتماعي .

ولما كان العلم أحد المقومات الرئيسة للحضارة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، نجده اليوم مطلباً حثيثاً للحضارة في كل جوانبها؛ فهي بذلك تتمم بالعلم والبحث العلمي. (دليمي، 2006، ص 10) ليصبح الأخير يحتل المركز الأول في اهتمامات الدول نتيجة المزايا التي يقدمها في مختلف الميادين .

وقد اعتمد الباحث على المنهج الاستنباطي في إعداد هذا المقال، وفق منظور بنائي وظيفي ليصل في النهاية إلى وضع جملة من الاقتراحات أو خطة -إن صحّ التعبير- لتجاوز هذه المعضلة.

1- الإشكالية:

أدت نجاحات العلوم الاجتماعية في عدة مجتمعات إلى استخدامها للسيطرة والتسلط على الأمم الأخرى، مستخدمين في ذلك نتائج تلك العلوم ومنها علم الاجتماع (وهو أمر حصل للجزائر حيث استخدمت فرنسا نتائج دراسات اجتماعية معينة للسيطرة عليها وإطالة بقائها فيها وخصوصا في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي)؛ بحيث يمكنها ذلك من أن تكون على إطلاع ودراية بمجمل التفاصيل والمعلومات والحشيات المتعلقة بتلك المجتمعات؛ فالدراسات الاجتماعية تقدم معلومات وبيانات منظمة كما تقدم تحليلات وتفسيرات لمصلحة القوى المجتمعية والسياسية حتى وإن كانت إيديولوجية أو سياسية.

والبحث العلمي -في حقيقة الأمر- يسعى للوصول إلى التعميمات والكشف عن مختلف القوانين التي تحكم الظواهر المختلفة طبيعياً كانت أم اجتماعية، وتنبغي الإشارة هنا إلى أن علم الاجتماع علم مهمته الأساسية محاولة

الكشف عن القوانين التي تحكم المجتمعات في تغيرها، تطورها وتقدمها، الطبقات الاجتماعية والقوانين التي تحكمها، الثقافة، السلطة، البناءات الاجتماعية بأنواعها وغيرها من القضايا التي يُعنى بها علم الاجتماع.

ولا يمكن لهذا العلم بلوغ أهدافه في الواقع إلا من خلال جمع المعلومات النظرية والميدانية الكافية حول الظاهرة موضوع الدراسة، باستخدام الباحث الاجتماعي للوسائل الملائمة لذلك الغرض. وعملية جمع البيانات مرحلة في غاية الأهمية، خاصة في البحوث الاجتماعية، نظرًا لما توفّره للباحث من رصيد يساعده فيما بعد للقيام بالعمليات الإحصائية اللازمة (وذلك طبعًا يكون تبعًا لطبيعة الموضوع).

ويستعين الباحث في هذه المرحلة بمجموعة من الأدوات المنهجية الضرورية لجمع البيانات الضرورية التي يحتاجها، مثل الملاحظة، المقابلة والاستمارة. هذه الأخيرة تمكّن -في كثير من الأحيان- الباحث من جمع أكبر قدر ممكن من البيانات الميدانية، والتي لا يمكن فهمها في شكلها البسيط (الخام)، إذا ما لم يُقَمِّ الباحث بصقلها وتحويلها من صورتها البسيطة (الأولية) إلى صورة أخرى كيفية (نوعية Qualitatif) عن طريق القيام بالتحليل والتفسير السوسيولوجي.

إنّ الملاحظة الأساسية التي كانت توجّه للطلبة المقبلين على التخرّج أثناء مناقشتهم لأعمالهم البحثية من قبل الأساتذة المناقشين (ليسانس، ماستر، ماجستير، دكتوراه)، كانت الإقرار بوجود غياب أو قصور على مستوى التفسير السوسيولوجي في أغلب تلك البحوث الأكاديمية ولكن دون تقديم تبرير له أو تبيان أوجه ذلك القصور. وهو ما دفعنا إلى تطوير هذا المقال بغية توضيح مختلف الأمور المتعلقة بالتحليل والتفسير السوسيولوجي لمختلف الظواهر الاجتماعية، في محاولة للكشف عن الأسباب المؤدية إلى غياب الصبغة السوسيولوجية في البحوث الأكاديمية الجزائرية؛ من خلال محاولة الإجابة عن التساؤل التالي:

**** ما هي الأسباب المؤدية إلى غياب التفسير السوسيولوجي في البحوث العلمية الأكاديمية الجزائرية؟ وكيف يمكن**

تجاوز هذه المعضلة المنهجية؟

وللإجابة على هذا التساؤل قام الباحث بإعداد خطة عمل متكاملة، بدءًا بتحديد المفاهيم التي تعتبر أساسية في العلوم الاجتماعية، مع التعرّيج على أهميّة التفسير السوسيولوجي وإبراز مصادره حسب بعض السوسيولوجيين، ليتمّ في الأخير استنباط الأسباب المختلفة التي تؤدي عادة إلى غياب التفسير السوسيولوجي في البحوث الأكاديمية الجزائرية.

2- قراءة في المفاهيم:

2-1- السوسيولوجيا:

علم الاجتماع أو السوسيولوجيا هو: "العلم الذي يسعى إلى فهم الفعل الاجتماعي وتفسيره لكي يصل إلى تفسير سببي لمساره ونتائجه". (ملحم، 1993، ص16)

من خلال هذا التعريف يمكن القول أنّ التفسير يؤدي إلى الفهم والفهم يسمح بالتفسير، فالفهم يجعل الباحث واعٍ ومدرّك لما يحدث حوله من ظواهر اجتماعية، ويسمح له ذلك بالتوقّع والتنبؤ بمستقبل الظواهر واتخاذ الإجراءات الملائمة لتفادي السيء منها، وكذا الاستفادة وحسن توظيف الجيد منها.

إذن فعلم الاجتماع يدرس الظواهر الاجتماعية المختلفة في ارتباطاتها والكشف عن علاقاتها السببية أو العلية، كما أنّ له العديد من الموضوعات التي يسعى لدراستها وفهمها والعمل على تفسيرها، ك: السلطة، النظم الاجتماعية،

التفاعل الاجتماعي، التغير الاجتماعي... إلخ. ولا يكتفي الباحث السوسيولوجي بالوصف فقط، بل يتعداه إلى التحليل والتفسير للوصول إلى فهم العلاقات القائمة بين مختلف الظواهر الاجتماعية المدروسة.

2-2- التفسير السوسيولوجي:

يعتبر التفسير السوسيولوجي للبيانات الإحصائية ضرب من ضروب التعميم، وبه يمكن للباحث أن يكشف عن العوامل المؤثرة في الظاهرة المدروسة والعلاقات التي تربط بينها وبين غيرها من الظواهر الأخرى. ودون هذا التفسير الاجتماعي تصبح الحقائق التي توصل إليها الباحث غير ذات معنى أو قيمة. وتتطلب عملية التحليل والتفسير من الباحث الثقافة المعمّقة في الدراسة التي يقوم بها، إضافة إلى الثقافة العامة في تخصصه. (مسلم، عبد الرحيم، 2011، ص135)

وتعني كلمة التفسير في علم الاجتماع خاصّة، دراسة الظواهر المجتمعية على أساس ارتباطها السببي أو العليّ؛ بمعنى دراسة المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة ضمن رؤية تجريبية وعلمية بهدف استصدار القوانين والنظريات، أو اختزال مجموعة من الظواهر في أقل عدد من العمليات المنطقية الصّارمة. (حمداوي، دت، ص4)

باختصار يمكن تعريف التفسير السوسيولوجي بأنّه: العملية التي بموجبها يسعى الباحث إلى اكتشاف المعاني والدلالات التي تشير إليها النتائج التي تمّ التوصل إليها ومحاولة توضيح أو سبب حدوث الوقائع. كما أنّه تلك العملية التي تقود الباحث إلى الكشف عن العوامل المؤثرة في الظاهرة المدروسة، ودلالة العلاقات التي تربط بينها وبين غيرها من الظواهر وصولاً إلى لفهم أسبابها. (علي، 2014، ص328)

2-3- البحث العلمي:

عملياً هناك العديد من التعريفات المقدّمة لمفهوم البحث العلمي، وهي بذلك تعكس منطلقات فكرية وتاريخية مختلفة للباحثين والمتخصصين (عبيدات، أبو نصار، مبيضين، 1999، ص4). وفي هذا الصدد يقول (كارتر جود (Carter GOOD) بأنّ تعريف البحث العلمي يختلف باختلاف أنواع البحوث ومجالاتها وأهدافها ووسائلها وأدواتها، وبالتالي من الأفضل ألاّ يشغل الباحث أو الدّارس منذ البداية بمسألة التعريف، والاكتفاء بالتركيز على نوعية البحث الجيّد وخصائصه.

وهناك تعريفات لا حصر لها لمفهوم البحث العلمي، سنورد بعضها بما يخدم الموضوع (عليان، غنيم، 2000):

- يرى (فان دالين) في البحث العلمي تلك المحاولة الدّقيقة النّاقدة للتوصّل إلى حلول للمشكلات التي تؤرق البشرية وتحيرها.

- أمّا (نائل العوامل) فيعتبره جهداً إنسانياً منظّماً وهادفاً يقوم على الرّبط بين الوسائل والغايات من أجل تحقيق طموحات الإنسان، ومعالجة مشكلاته وتلبية حاجاته وإشباعها. ويتضمن مجموعة من الأدوات والبيانات والمعلومات المنظّمة والهادفة، ويربط بين النظريات والأفكار والإبداع الإنساني من جهة وبين الخبرة والممارسة والمشكلات والطموحات الإنسانية من ناحية أخرى. (ص17، 18)

وهو التعريف المعتمد في هذا العمل، نتيجة لشموله على مختلف الجوانب الرئيسية في البحث العلمي؛ حيث يؤكّد على خاصيّة التّنظيم والهادفة فيه، مع التركيز على وجود بيانات ومعلومات وأدوات للبحث، وكذلك يساهم في ربط

النظريات والأفكار والإبداع البشري بالخبرة والممارسة والمشكلات، وكلها عمليات تتطلب جهداً كبيراً مع توافر مهارات معينة من القائم بعملية البحث، حتى يستطيع الوصول إلى غاياته بالشكل المرغوب.

وعموماً يمكن القول بأنَّ يحمل التعريفات تتمحور وتتفق حول مجموعة من النقاط الأساسية، لعلَّ أهمُّها ما يلي:

- محاولة عملية منظَّمة.

- يهدف إلى زيادة المعلومات وتوسيع دائرة معارف الإنسان.

- يختبر المعارف والعلاقات.

- شامل لجميع ميادين الحياة وجميع مشكلاتها.

3- غاية البحوث الاجتماعية:

هناك شبه اتفاق للعلماء والمتخصصين في المنهجية على وجود أربع أهداف رئيسية، تسعى البحوث العلمية

الاجتماعية لتحقيقها على غرار باقي البحوث العلمية الأخرى، وهي باختصار:

- استعراض المعرفة الحالية وتحليلها وإعادة تنظيمها. (وتختص بهذا الهدف البحوث النظرية المكتبية).

- وصف موقع أو مشكلة محددين (وهو هدف تحقِّقه البحوث النظرية المحضّة).

- بناء أو تكوين نموذج جديد (وهذا ما تحقِّقه أعقد أنواع البحوث وأكثرها كلفةً).

- وضع تفسيرات وتحليلات لشرح ظاهرة أو مشكلة معينة (وهو هدف تحقِّقه البحوث المهنية والأكاديمية، وهي النوع

المثالي الذي يمكن للباحثين اعتماده).

4- دور العنصر البشري في البحوث العلمية:

يمثِّل الإنسان المحرِّك الرئيسي لمختلف مراحل البحث العلمي، وفي مختلف ميادين المعرفة الإنسانية، من منطلق أنه

يقوم بتخطيط مراحل البحث، تنظيمها، تنفيذها وتوجيهها، وصولاً إلى النتائج التي يجب عليه ترجمتها ووضعها بصورة

علمية منطقية أمام متخذ القرار؛ وهو أمر يؤكِّد وجود خبرات الباحث، طبيعة تكوينه، أو بالأحرى ذاتيته في طيات

البحث الاجتماعي الأكاديمي.

ومن هنا كان ضرورياً توافر مجموعة من الشروط والصفات التي تؤهِّل الفرد الباحث في العلوم الاجتماعية -وعلم

الاجتماع خصوصاً- لإنجاز البحوث التي تُطلب منه أو التي يريد إنجازها، ونذكر منها ما يلي:

- إتقان المهارات الأساسية اللازمة للبحث العلمي.

- المعرفة الواسعة في موضوع البحث.

- توفُّر المعرفة ببعض الأساليب الإحصائية.

- الموضوعية والحياد في تصميم البحث، عرض النتائج ومناقشتها.

- الصبر والقدرة على التحمُّل.

5- أهمية التفسير والتحليل السوسيولوجي في علم الاجتماع:

بعد قيام الباحث بعملية جمع البيانات الميدانية باستخدام الأدوات اللازمة لذلك (ملاحظة، مقابلة، استمارة)، يمرّ إلى المرحلة الموالية والمتمثلة في تحليل تلك البيانات المجموعة من الميدان، باستعمال تقنية إحصائية أو أخرى، باعتبار أنّ ما توصل إليه -حتى اللحظة- عبارة عن بيانات صمّاء يغلب عليها الطابع الوصفي.

والباحث اليوم يلجأ في معظم الأحيان إلى الاستعانة بما جادت به قريحة العلماء والمهندسين في الإعلام الآلي، من برامج إحصائية وتقنيات متطورة ودقيقة لتحليل البيانات ومعالجتها إحصائياً، مثل برنامج: SPSS بطبعاته المختلفة (8، 9، 10، 11، 13، 15، 17، 18، 19، 20، 21...) و SFINX و SASS... وغيرها من البرامج. وهذا التقدّم التقني يبقى مجرد تقنيات تساعد الباحث الاجتماعي خلال عملية التحليل أمّا الاستدلال أو التفسير السوسيولوجي فهو من تصميم وإبداع الباحث نفسه، أي أنّ هذه التقنيات والبرامج تقوم بوظيفة مساعدة فقط ولا تقوم بالتحليل السوسيولوجي.

وعليه وجب على الباحث في علم الاجتماع التخلي عن فكرة أنّ تحليل البيانات الكمية يقتصر على الضغط على الأزرار، وعلى استخدام تقنيات إحصائية معينة ثمّ التعليق عليها آلياً -وهو محور هذه المداخلة-؛ إذ لا بدّ ألاّ يتمّ الاعتماد كلياً على تلك الطرق والأدوات الإحصائية، بل من الضروري تدعيم مختلف المعطيات بتحليل سوسيولوجي يمكن المتلقي، الدّارس، القارئ... من فهم نتائج البحوث فهماً متخصصاً، وهو أمر يكفله أو يتطلّب خيالاً سوسيولوجياً (سبعون، جراي، 2012، ص 267).

5-1- الخيال السوسيولوجي البنائي عند رايت ميلز:

اختلف معظم المهتمين بتصنيف أعمال (ميلز) وتحليلها وتقويمها، حول التوجّه المعرفي الإيديولوجي الذي استند إليه في دراساته وكتاباتاته المختلفة، فنجد (أرفنج هورفيتز) يعتبره براجمائياً، أمّا (ألفين غولدرن) فيراه رومنسياً وذلك بالرغم من أنّ ميلز ساهم بشكل كبير في نضج تكنولوجيا البحث السوسيولوجي. وفيه من نعتة ب(تروتسكي تكساس) (عبد المعطي، 1981، ص 151) نتيجة صلته بالفكر الاشتراكي.

وصدر ل (رايت ميلز) كتاب يحمل عنوان: "الخيال السوسيولوجي" سنة 1959، والذي يعتبر مقدّمة رائعة وملخصاً هاماً للنزعة الإنسانية الكامنة وراء علم الاجتماع. والخيال السوسيولوجي يمثّل رؤية اجتماعية وأسلوباً للنظر إلى العالم، يمكن أن يدرك الارتباطات بين المشكلات الفردية التي تبدو شخصية في الظاهر والقضايا الاجتماعية الهامة.

هذا ويؤكد رايت تشارلز ميلز (1962/1916) على ضرورة تأسيس علم اجتماع ذا نزعة إنسانية يربط بين الأبعاد: الاجتماعية والشخصية والتاريخية، وهو بذلك يتخذ موقفاً نقدياً من النزعة الإمبريقية المجردة والنظريات الكبرى في آن واحد (غيدنز، 2006، ص 47، 48). وهو ما يبرزه الفصل الثاني من كتاب الخيال السوسيولوجي، حيث حاول فيه توضيح أزمة التنظير في علم الاجتماع الغربي متمثلة في الوظيفة ورواها.

ويمكن تلخيص أهمّ جوانب فكر (رايت تشارلز ميلز) في العناصر التالية: (عبد المعطي، 1981)

*- ينظر إلى علم الاجتماع بشكل براغماتي؛ فالأفكار والنظريات حسبه ليست ذات قيمة في حدّ ذاتها، بل قيمتها تتجلى من خلال ما يمكن أن تفعله في الواقع الاجتماعي (أي عن طريق توظيفها في المجتمع).

*- يدعو إلى ضرورة الأخذ بالنظرة الشاملة في الدراسة السوسيولوجية؛ حيث يدعو الباحثين والمشتغلين في علم الاجتماع إلى التركيز على مستويات ثلاث للتحليل متمثلة في: الإنسان، المجتمع والتاريخ.

وهو في هذه النقطة بالذات يعتقد أنّ مشكلات الناس الفردية، هي نتاج المشكلات الحاصلة في البناء الاجتماعي العام (المجتمع)، وهما بدورهما يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالمشكلات التاريخية (أي أنّهما نتاج لمشكلات تاريخية معينة). (ص152، 153)

ومثال ذلك مشكلة "الجريمة في المجتمع" فحسبه يقوم بها فرد معيّن، نتيجة اختلال ما في نظام أو نظم المجتمع كالأسرة أو غياب القوانين.....، وما هي إلاّ نتاج لتراكمات تاريخية بعينها أي لها جذور تاريخية ولا تظهر من العدم.

*- يركّز (ميلز) على فكرة أنّ المفهوم السوسيولوجي لا بدّ أن يكون ذا مضمون إمبريقي، فلا يكون أكبر من الفكرة، وبالتالي كان علم الاجتماع ضمن التيار الإمبريقي التجزيئي. كما لا ينبغي ألاّ تكون الفكرة أوسع من المضمون الإمبريقي، وهنا يمكن أن يقع الباحث في علم الاجتماع في عالم المجرّدات في النظريات الكبرى وبالتالي يتعد كلياً عن الواقع (الموازنة بين النظري والإمبريقي).

*- عاب ميلز على معظم المشتغلين بعلم الاجتماع في الولايات المتحدة الأمريكية، موقفهم المسبق من التراث الماركسي، فقد كان يؤكّد على أنّ ثمة فرقاً بين أن نفهم ونعرف لنرفض ونقاوم، وبين أن نرفض ونقاوم دون فهم ووعي.

*- كما أنّ ميلز عمل على توضيح فكرة اغتراب الإنسان الأمريكي وتزييف وعيه، وبالتالي طبعه باللامبالاة والقصور فيما يخصّ التغيّر الاجتماعي.

5-2- الخيال السوسيولوجي عند أنتوني غيدنز:

استخدم (أنتوني غيدنز) مصطلح الخيال السوسيولوجي على نطاق واسع، مع التركيز على أنّ ممارسة علم الاجتماع يتطلب من الباحث استشارة وتنشيط ذلك الخيال المستمد من علم الاجتماع.

ويقصد (أنتوني غيدنز) بالخيال السوسيولوجي بعض أشكال الحساسية المرتبطة ببعضها البعض، والتي يصعب الاستغناء عنها في التحليل الاجتماعي، وهو يرى أنّه لا يمكن التوصل إلى فهم للعالم الاجتماعي الذي أشعلته شرارة المجتمعات الصناعية المعاصرة إلاّ من خلال ممارسة الخيال على ثلاثة أصعدة في الوقت ذاته، وهي الحساسية التاريخية، الحساسية الأنثروبولوجية والحساسية النقدية. (غيدنز، 2006، ص 47، 48)

وتتمثّل المهمة الأولى للخيال السوسيولوجي للباحث الذي يحلّل المجتمعات الصناعية المعاصرة، في استعادة ماضيها القريب (وهو ما يُطلق عليه العالم المفقود)، فبفضل هذا الجهد الذي يقوم على وعي بالتاريخ، يمكن فهم الاختلاف بين معيشة أفراد المجتمعات الصناعية اليوم، وأسلوب معيشة من سبقهم في الماضي القريب نسبياً.

كما تساعد أيضاً بشكل كبير الحقائق البسيطة المجرّدة كالأرقام والإحصائيات والتواريخ... ولكن المطلوب فعلاً هو محاولة الاستعادة التصورية (الخيالية) لنسيج أشكال الحياة الاجتماعية التي زالت اليوم إلى حدّ بعيد (غيدنز، 2006، ص 50، 51). ومن وجهة النظر هذه نستنتج أنّه لا يوجد فرق بين عالم الاجتماع وفهم المؤرّخ حسب (غيدنز).

وبالعد الثاني يُعنى بزرع النظرة الأنثروبولوجية في وعي الباحث المشتغل في علم الاجتماع، حيث يمكن القول أنّ انتشار الرأسمالية الغربية، كان بصفة مباشرة إيذاناً بانطلاق سلسلة من الأحداث التي دمّرت أغلب الثقافات التي اتّصلت

بالثقافة الغربية (بداعي التطور الاجتماعي؛ أي حصر تلك الوقائع في فكرة التطور الاجتماعي)، وهو قدرة المجتمعات المختلفة على السيطرة على بيئاتها المادية والتحكم فيها.

ويشير إلى أنّ التطورية تتمركز حول السّلالة، وهو ما يتعيّن على الخيال السّوسولوجي التصدي له وتبديده... (غيدنز، 2006، ص 60)، فالبعد الأنثروبولوجي للخيال السّوسولوجي مهمّ جدا؛ لأنّه يسمح من فهم تنوّع أنماط الوجود الإنساني المعروفة على هذه الأرض؛ لأنّ البحوث الأنثروبولوجية الحديثة نجحت في إبراز مدى التنوّع الهائل في النّظم التي قد يُدبّر بها البشر شؤونهم المختلفة. (غيدنز، 2006، ص 64)

كما يؤكّد (غيدنز، 2006، ص 66) كذلك على أنّ الجمع بين المعنيين السابقين سوف يسمح للباحث في علم الاجتماع من ممارسة الخيال السّوسولوجي، هذا الأخير يسمح بالتحرّر من القيود التي تحصره في حدود التفكير في نوع المجتمع الذي نعرفه في الزمان والمكان الحاليين فقط.

أمّا فيما يخصّ المركّب الثالث فهو النقد الاجتماعي، وآفاق المستقبل حيث أنّ (غيدنز، 2006، ص 67) ضد فكرة أن علم الاجتماع يمثّل العلوم الطبيعية؛ أي لا وجود لعمليات اجتماعية تخضع لقوانين ثابتة لا تتغيّر، بل لابد من ضرورة وعي الباحث بما يسميه المستقبلات البديلة (المتاحة)، والخيال السّوسولوجي بهذا المعنى ينصهر كلية مع مهمّة علم الاجتماع في الإسهام في نقد الأشكال الاجتماعية القائمة حاليا، والنقد يجب أن يقوم على التحليل.

6- أسباب غياب التفسير السّوسولوجي في بحوث الليسانس - الماستر والدكتوراه:

إنّ التحليل أو التفسير السّوسولوجي لا يقوم على غرار مختلف المراحل المنهجية، من تحديد مشكلة البحث، أدوات جمع البيانات... إلخ، أو على وجود خطوات وشروط يمكن توافرها في كتب ومراجع المنهجية المتعدّدة، بل يتوقّف - كما سبق وأن أشرنا - على الخيال السّوسولوجي، الذي يتمتع به الباحث في علم الاجتماع، والذي يساعد في التفسير...

وهنا يمكن للباحث أن يطرح التساؤل التالي: من أين يأتي الخيال السّوسولوجي؟ أو ما هي مصادره؟، ولإجابة عن هذا السؤال لابد أن نتطرق إلى أهميّة النظرية في علم الاجتماع، أهميّة الدّراسات السابقة، أهميّة القراءات التاريخية، والأنثروبولوجية.... لأنّ القراءات المتعدّدة والمعقّدة في علم الاجتماع عموما وفي موضوع البحث خصوصا، تمكّن الباحث من إدراك المداخل المختلفة للظاهرة التي هو بصدد دراستها.

إنّ القراءات التي يقوم بها الباحث تكسبه ثقافة سوسولوجية، تعينه من استنتاج مفاهيم معيّنة مرتبطة بأهداف البحث أو الدّراسة التي يريد إنجازها؛ أي أنّ عملية التفسير والتحليل الاجتماعي تتوقّف على مدى امتلاك الباحث للرأسمال الثقافي المفاهيمي السّوسولوجي، الذي يعرف كيف يوظّفه في هذه الحالة أو تلك، كالاستشهاد بمقولات معيّنة مثلا. (سبعون، جراي، 2012، ص 269)

ومن هنا يمكن أن نعدّد مجموعة من الأسباب التي قد تؤدي إلى غياب - وحتى نكون منصفين - نقول قصور أو نقص البعد أو الصبغة السّوسولوجية في أغلب البحوث الأكاديمية في الجزائر، سواء كانت بحوث ليسانس، أو ماستر، ماجستير وحتى دكتوراه.

6-1 - أسباب تتعلق بالطلّبة الباحثين:

من بين الأسباب التي يمكن أن تكون مؤثرة بشكل كبير في غياب الثقافة السوسولوجية لدى الطلبة والباحثين في علم الاجتماع، نذكر ما يلي:

- قلة القراءات والمطالعة في التخصص عمومًا (علم الاجتماع) وفي التخصصات الفرعية.
 - اكتفاء الطلبة بما يقدم لهم في المحاضرات.
 - غياب روح المسؤولية لدى معظم الطلبة.
 - الاقتداء بالطلبة غير الأكفاء من قبلهم، أو الذين سبقوهم.
 - الاعتماد على النقل، وغياب الأمانة العلمية في أغلب الأحيان.
 - انشغال الطلبة بالتوظيف وأشياء أخرى كثيرة، بدل التكوين السليم.
 - ضعف التكوين المنهجي لديهم.
- 2-6- أسباب تتعلق بالتكوين:

- ضيق الوقت المخصص لإعداد البحوث الأكاديمية.
- قلة المراجع في المكتبات الجامعية في أغلب الأوقات.
- وحتى نكون منصفين قد يتعلّق الأمر بالأساتذة في حدّ ذاتهم؛ ويتجلى ذلك في محدودية البعض الفكرية من حيث التواحي التاريخية أو الأنثروبولوجية بحسب أنتوني غيدنز، وصعوبة إيصال وإفهام الطلبة في علم الاجتماع وقضاياها، موضوعاته ومنهجها، نتيجة توجههم وجهة معيّنة في التحليل والتفسير تارة، ونتيجة العدد الكبير للطلبة، وعدم توافر الظروف الملائمة تارة أخرى.
- عدم كفاية الحجم الساعي لتقديم ما يمكن تقديمه من أمور تتعلق بعلم الاجتماع، من نظريات وتحليل سوسولوجي للظواهر، لأنّ الأستاذ مجبر في أغلب الأحيان على إتمام البرنامج السنوي أو على الأقلّ الوصول إلى نسبة من التقدّم تسمح له بإجراء الامتحان للطلبة.
- تعدّد المقاييس وكثرتها، وكذا قلة الوقت في التخصص، لأن سنة واحدة لا تكفي الطالب لإكتساب القدر الكافي من المعارف التي تؤهله لتكوين ثقافة أو رصيد سوسولوجي يساعده على التفسير والتفسير عند إعداد البحوث الأكاديمية.
- إنّ الحديث على هذه النقاط يقودنا إلى الحديث عن إسهامات "بيير بورديو" الفرنسي، وكتابه الذي عالج فيه فكرة إعادة إنتاج التعليم؛ فالأستاذ يميل إلى الحفاظ على النمطية التي كان عليها طالبًا، والتي اكتسبها من خلال دراسته الأكاديمية على يد أساتذة من أجيال تختلف عن جيله وخاصة في الدراسات العليا، كما أنّ الجامعة تسعى للحفاظ على نسقها الذي عملت به لسنوات.

فالطلبة يعتمدون على مذكرات جرت مناقشتها في حجرات مغلقة، ولم تنقل تلك الملاحظات إلى العامة ولم تدوّن على العمل أو في العمل؛ فرغم أنّ الملاحظات التي يقدمها المناقشون تكون على قدر كبير من العمق والأهمية خاصة في موضوع هذا المقال (غياب التفسير السوسولوجي) إلا أنهم لا يقومون بتوثيق تلك الملاحظات لينحصر صداها في المجموعة الحاضرة في المناقشة فقط.

ومن هنا يمكن أن نقترح بعض الإجراءات التي من شأنها تجاوز بعض العقبات الخاصة بإعلام الطلبة الجدد مستخدمي هذه المذكرات أو الرسائل أو الأطروحات كدراسات سابقة تارة وكدليل منهجي لإعداد بحوثهم الحالية؛ يمكن إنجازها في النقاط التالية:

- × السعي لإعداد مناهج دراسية ترقى لعلم الاجتماع وترتقي به وتخصّصاته المختلفة، والتركيز على تكوين ملكة البحث لدى الطالب، تشكيل الحس النقدي وتغذيته لديه...
- × التركيز على استخدامات النظريات في تفسير الظواهر الاجتماعية وخاصة في المستويات العليا (ثالثة ليسانس علم اجتماع، أولى وثانية ماستر وأولى دكتوراه LMD) بدل التركيز على محتوياتها؛ إذ نلاحظ أحياناً وجود رصيد نظري جيد لدى الطالب ولكنه يعجز عن توظيفه بشكل سليم في معالجة مشكلة بحثية سوسولوجية ما.
- × التزام الأساتذة بأخلاقيات المهنة والقيام بواجباتهم على أفضل وجه، ولعل أهمها تحيين معارفهم باستمرار سواء في التخصص أو في منهجية البحث؛ حتى لا تبقى للطالب حجة للوقوع في الخطأ.
- × ضرورة تحلي الطلبة بروح المسؤولية والأمانة العلمية عند إعداد بحوثهم، وكذا بذل ما يمكن بذله في سبيل إنجازها على أفضل وجه وجعلها بحثاً قيّمة، بدل الوقوع في الاجترار والتكرار والنقل والسرقات العلمية....
- × ضرورة حرص المشرفين على متابعة والإعداد الجيد لأعمال طلبتهم، ببذل جهود على المستويين العلمي والمنهجي، والسهر على التوجيه السليم لطلبته لتفادي الوقوع في الزلل.
- × ويفضّل أن تطلب اللجنة تعديلات بعد المناقشة، وخاصة في الدراسات التي تحتوي على أخطاء قد تكون جسيمة ونُجِّل بالعمل؛ وذلك تفادياً لوقوع الطلبة اللاحقين فيها، وبالتالي تفاديها...
- × تخصيص صفحتين في بداية المذكرة المناقشة لإدراج ملاحظات المناقشين، وهنا قد تترك بيضاء ويقوم المناقشون بكتابة ملاحظاتهم المختلفة حول ذلك العمل والإمضاء عليها، حتى يكون اللاحقون من الطلبة على بينة من أمرهم عند استعمال هذه المذكرات.
- × ويمكن أن توكل هذه المهمة إلى رئيس اللجنة لمتابعة العملية من خلال إلزام الطالب المترشح بكتابة تلك الملاحظات بعد تسليمها له من قبل المناقشين بعد المناقشة مباشرة أو بعد فترة وجيزة، وطباعتها وإدراجها في الصفحة أو الصفحتين الأولى من المذكرة خاصته. ويمكن أن تقوم الجامعة بتشكيل لجنة لمتابعة العملية (خلية).
- × يكلف رئيس اللجنة بالسهر على متابعة العملية، وذلك بالتأكد على ترقيم تلك الصفحات الإضافية الخاصة بالملاحظات، وإمضاء المناقشين عليها؛ لتكون من جسد أو بناء ذلك العمل، فحتى إن جرى تمزيقها لاحقاً سيعرف القارئ أنّ هناك صفحات ناقصة، ومع انتشار هذه الفكرة سيصبح الكل عارفاً بأنّ مذكرات التخرج تحتوي على ملاحظات المناقشين التي تُبرز مواطن القوة والضعف في كل عمل، وبالتالي إمكانية تحسين وتجويد الأعمال الجديدة.

خلاصة:

من خلال ما تقدّم يمكن القول بأنّ الباحث في علم الاجتماع، لا بد أن يكون مطلعاً بكل التطورات والتغيرات البيئية الحاصلة من حوله، كما يجب عليه معرفة تاريخ الظاهرة التي يدرسها من أجل فهمها بشكل جيد...

هذا بالإضافة إلى المطالعة والقراءة المستفيضة التي تسمح له من توسيع آفاقه في التخصص وفي علم الاجتماع عمومًا، حتى يكون لديه رصيد معرفي يوظفه في التفسير والتحليل... أي يمكنه من تشكيل الخيال السوسيولوجي. وكما سبق وأن أشرنا، لا بد أن يكون للباحث عقل ناقد، يتكوّن لديه من خلال إطلاعه على التاريخ (الماضي)، سواء ما تعلق بالمجتمع ككل أو الظاهرة المدروسة في الزمان والمكان، من أجل فهم واستيعاب الأحداث والظواهر المستجدة (تغيّر/ استقرار...).

ولمعرفة تطور الظاهرة المدروسة، والأنظمة التي من شأنها تنظيم المجتمعات حقل الدراسة، من الضروري أن يكون الباحث على اطلاع ودراية بالأنثروبولوجيا، التي تُعنى بدراسة المجتمعات البدائية وتطورها.

إنّ انشغال الباحث بهذه الدروب الثلاثة من المعرفة، يسمح له من تكوين رصيد معرفي هام، يجعله قادرًا على تكوين أو تشكيل ما يعرف بالخيال السوسيولوجي، هذا الأخير يجعل الباحث قادرًا على فهم الظواهر وتفسيرها تفسيرًا علميًا يسمح للقارئ من فهم الارتباطات، العلاقات... إلخ بين الظواهر المختلفة ومن مجتمع إلى آخر.

وعليه إذن لا بد للباحث أن يوفّق بين الجانب النظري وما يجمعه من بيانات ميدانية، وأن يبذل جهدًا بحيث يحقق التكامل المنهجي من جهة ويحقق مجموعة من الخصائص التي تميّز البحث العلمي من جهة أخرى، والتي نذكر منها:

- الموضوعية.
- الدقة وقابلية الاختبار.
- امكانية تكرار النتائج.
- التبسيط والاختصار.
- الوصول إلى هدف وإمكانية التعميم والتنبؤ.

قائمة المراجع:

- باقادر أبو بكر، (2006). آفاق علم اجتماع عربي معاصر. دمشق: دار الفكر.
- حمداوي، جميل. (دت). علم الاجتماع بين الفهم والتفسير. شبكة الألوكة.
- دليمي عبد الحميد، (2006). "التعليم العالي في الجزائر وتحديات العولمة". دفاثر المخبر، جامعة محمد خيضر، (ع2)، ص.ص. 9. 27.
- سبعون سعيد، جرادي حفصة، (2012). الدليل المنهجي في إعداد المذكرات والرسائل الجامعية في علم الاجتماع. الجزائر: دار القصة للنشر.
- عبد المعطي عبد الباسط، (1981). اتجاهات نظرية في علم الاجتماع. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- عبيدات محمد، أبونصار محمد، مبيضين عقلة، (1999). منهجية البحث العلمي، ط2. عمان: دار وائل.
- علي، ماهر أبو المعاطي. (2014). الاتجاهات الحديثة في البحوث الكمية والبحوث الكيفية ودراسات الخدمة الاجتماعية (ط1). الاسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.

- عليان ربحي، غنيم عثمان، (2000). مناهج وأساليب البحث العلمي، ط1. عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع.
- غيدنز أنتوني، تر: زايد أحمد وآخرون، (2006). مقدمة نقدية في علم الاجتماع، (ط2). جامعة القاهرة: مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية.
- مسلم، عدنان أحمد، عبد الرحيم، أمال صلاح. (2011). دليل الباحث في البحث الاجتماعي (ط1). الرياض: مكتبة العبيكان.
- ملحم حسن. (1993). التحليل الاجتماعي للسلطة. الجزائر: منشورات دحلب.